

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

منشورات الاختلاف

جائزة مالك حداد 2007

كمال قرور

التّراس

ملحمة الفارس الذي اختفى...

رواية

كمال قرور

التراس

ملحمة ا لفارس الذي اختفى...

رواية

"إن فضيلة الرجل هي أثره ولكن الرجل السيئ السمعة منسي "

لوحة قبر شريف مصري قديم من حوالي 2000 ق. م

حديث الراوي ..

قال (الراوي) هي حكاية تروى للعبرة والاعتبار ولكنها ليست ككل الحكايات التي جاءت على لسان شهرزاد في ليالي ألف ليلة وليلة، أو على لسان الحيوان كما في حكايات كليلة ودمنة لابن المقفع. الحكاية واقعية وفيها ما يشبه الخيال، غرائبية وبعض تفاصيلها أغرب من الخيال. إنها حكاية التراس الفارس البطل الهمام الذي ولد وتربى وعاش وغامر وجاهد على أرضنا الطاهرة ثم إختفى في لحظة حاسمة وفي ظروف غامضة من تاريخ أمتنا المجيد.

والملحمة التي نرويها للأجيال تتداولها الألسنة على الهامش في المناسبات الوطنية والدينية، كما يتداولها رواة السير الشعبية في الأسواق، في المناسبات الدينية والأعياد الوطنية، ولكن للأسف حتى اليوم ترفض السلطات تدوينها في كتب التاريخ وإدراجها في المقررات المدرسية لأنها تستند إلى -المؤرخين الرسميين– الذين يرونها تفتقر إلى الواقعية، والموضوعية.

والمؤرخون سامحهم اللّه، بدءا بابن كثير والطبري والمسعودي وابن خلدون وانتهاء بعبد الرحمان الجيلالي وتوفيق المدني، يهتمون كثيرا بهذه القضية ويولونها عناية فائقة في كتابتهم للتاريخ الرسمي المتواتر والمتسلسل والمترابط كعقد الجوهر. إذ ما قيمة الأحداث التاريخية – في نظرهم- إن لم تكن واقعية وموضوعية ..؟

وهكذا يـا سادة، تبقى حكايتنا، حكاية بطلنا

التراس، مجرد حكاية تحكى للعبرة على هامش التاريخ الرسمي الموجه والمنقح والمزيد والمغربل من كل الشوائب والزوائد والدسائس والأقاويل، في انتظار إعادة كتابة تاريخ أمتنا المجيد بعيدا عن التعصب والتحيز والتزوير ..
ما حكاية التراس إذا؟ ولماذا اختفى؟ وكيف اختفى؟ وهل كان يجب أن يختفي في لحظة نصر مصيرية كتلك التي اختفى فيها وترك شؤون العباد في قبضة الفوضى تسيرها أنى شاءت وكيف شاءت ؟

بطل من خيال ..

قال (الراوي) كان التراس فارسنا بطلا معروفا في تلال عنابة ومتيجة ووهران. وجبال ايدوغ وبابور والاوراس ولالا خديجة والوانشريس والظهرة وأولاد نايل والقصور والنمامشة والزاب وحتى في الصحراء المترامية الاطراف والرمال.. أرض التوارق الرجال الزرق الشجعان المتاخمين لأفريقيا السوداء، كما كان معروفا في طانجة وقرطبة وسوسة وطرابلس ومصر والشام والحجاز يعرفه ويقدره، كل الناس كبيرهم وصغيرهم ذكورهم وإناثهم .. كما تعرفه الحيوانات البرية والمتوحشة، و طيورالبر والبحر وأشجارالسرو والبلوط والصفصاف واللوز وأزاهير السوسن والنرجس والأقحوان والخزامى ..

أطلسي القامة، عريض المنكبين، عيناه نجمتان ساطعتان وفمه هلال، وشعره غابة صنوبر

أفقه سماء .. وعطره الخزامى، وحديثه جدول عذب يطفئ ظمأ كل المخلوقات..

عندما يسيرالتراس في الطريق يهتز التاريخ تحت قدميه وتتقلص الجغرافيا، ولما يمتطي جواده الريح تحييه النساء بالزغاريد والرجال بالبارود والأطفال بالتهاليل والأناشيد وتنحني له الأشجار و الأطيار..ويرشه الغمام بما اعتصره من قطر ..

كان بكل بساطة إنسانا بسيطا في مأكله، لا يأكل إلا ما تغرس يداه .. ومتواضعا في ملبسه، لا يلبس إلا ما تصنع

يداه. وكان أيضا لطيفا جدا مع الصغار ومقدرا الكبار، ورحيما بالحيوانات والنباتات والأشياء، ولذلك كان الجميع يحبونه .. وبصراحة، كان هو الآخر لا يضمر عواطفه النبيلة اتجاه من حوله، لأنه كان سعيدا بذلك الحب والاحترام.. وكان يدعو الجميع أن يحبوا ويحترموا بعضهم، حتى تسود المحبة في ربوع الوطن

فقط صديقه "اللقلق" كان يعلم ما يخفي في قرارة نفسه من لهيب الثورة، اتجاه "العماليق" الذين استعبدوا أبناء وطنه وساؤوهم سوء العذاب. أبدا لم يكن التراس إنسانا عاديا .. بل كان إنسانا غريب الأطوار منذ ميلاده الغامض الموغل في التاريخ السرمدي..

أسطورة التراس الحكيم ..

قال (الراوي) هناك من يؤكد أن التراس ملاك في صورة إنسان أرسله الخالق إلى الأرض لينقذ الناس من الظلم الذي لحق بهم، وهناك من يروج لأسطورة الزواج المختلط بين الإنس والجن وكان فارسنا ثمرة هذا الزواج المبارك الذي لم يكن إلا مرة واحدة في تاريخ الكون .. وقال آخرون استنادا إلى ما جاء في الكتب القديمة: هذا عوج بن عناق الذي عاش في زمن سيدنا نوح عليه السلام والذي ساهم في نقل الأخشاب من بلاد بعيدة لبناء السفينة العظيمة التي أنقذت المؤمنين وبقية الكائنات الحية التي أمر الله نبيه نوحا أن يصنعها لهذا الغرض .. ثم عاصر النبي موسى، ولما قابل نبي الله عواج بن عناق، وكان طول النبي عشرة أذرع، كطول عصاه، وثب في السماء عشرة أذرع أخرى وضرب عوجا فأصاب كعبه، فتهاوى على الأرض، وهذه الحكاية الطريفة لا تختلف عن حكاية البطل آخيل الذي مجده هوميروس في إلياذته العجيبة. لما أصيب كعب أخيل لقي حتفه بينما كان جسد عواج بن عناق جسرا لأهل النيل يعني يهود الخروج الذين اجتاحوا أرض فلسطين العربية منذ القدم .. ولما استيقظ من غيبوبته بعد قرون، أصبح مهديا..

لما يسأل التراس عن هذه الروايات المتداولة بين عامة الناس يتعجب لقدرتهم على نسج الخيال

وجعله واقعا، وعجزهم عن نسج الواقع ليصبح خيالا .. لذلك يصمت، ويغرق في صمته وعزلته ..
وحين يسأل عن والديه يقول بعفوية أبي التاريخ وأمي هذه الأرض الطيبة، وكل الكائنات إخواني، لأنا جميعا رضعنا ثديها الخيرة المباركة ولعبنا في حجرها الفسيح، وشاغبنا وشاكسنا لكنها لم تزدد بنا إلا رحمة ورأفة وحنوا..
عندما يعيد التراس هذه التفاصيل التي لا يكل من تكرارها على مسامع سائليه، يسجد سجود العابد في صومعته، فيبدو مثل جبال الأطلس يقبل التراب الزكي ثم يذروه في السماء، فيتناثر بعيدا كأن عاصفة هوجاء نثرته، يبتسم، ثم يصرخ :

- الله .. الله ..كم قصرنا في حق هذا التراب ..

يشعر حينئذ كأنه مسؤول عن ذاك التقصير، تسيل دموعه وتفيض وديانا وأنهارا.. وسرعان ما تتشربها الأرض العطشى ..
عندما يسأل التراس فارسنا المغوار عن عمره، يحلو له دائما أن يجيب سائليه:
عمري قرون من الشوق والحنين
وهذه القرون انتهت
كيفما شاء ت لها الأقدار أن تنتهي
وليس لي عليها سلطان
ولست أستطيع أن أغير فيها
بالإضافة أو الإنقاص.
فهي ماض انتهى،
ولا يحق لي أن أضعه

على رأسي تاجا
أتباهى به أمام الأمم
وإنما من حقي أن أفترشه
بساطا وثيرا أستريح عليه
كلما تعبت قدماي من السير
في زحمة الحياة.
والغد في علم الغيب
مازلت غير مدرك إياه
وغير مستطيع أن أفعل به ما أشاء
فهو ليس ملكي،
ولست أدري ما يخفي لي في جيبه،
ولكن من واجبي
أن أنظر إليه نظرة أكثر ايجابية
من نظرتي إلى الماضي
لأن مصيري هناك،
لذا وجب علي ترقبه
حتى لا يفاجئني ويربك خطواتي ..
وأصدقكم القول يا أصدقاء :
أن عمري الحقيقي
هو اللحظة الحية الفاتنة
التي أحدثكم فيها
وما أفكر فيها
وما أفعل فيها
وما أقرر فيها ...
هكذا دائما، يكون حديث فارسنا التراس عميقا عمق الأرض التي تربى على أديمها، وشهيا

شهية ما تنبته من قمح وشعير وتفاح وعنب ورمان وكرطوس وزيتون وخوخ ومشمش وزعرور وتمر وهندي.. وعذبا عذوبة المياه التي كانت تتدفق في الوادي الكبير قبل أن يحوله "العماليق "إلى وجهة أخرى ويحرموا منها أبناء وطنه، وطن الشمس..

ولأنه كذلك كان يحلو لبعضهم أن يلقبوه "الحكيم ".

وفعلا بالإضافة إلى طيبته وتواضعه كان التراس حكيما. حنكته التجارب، وأمهات كتب الأمم الغابرة التي صنعت مجد الحضارات البشرية المتعاقبة وساهمت في رقي الإنسانية ..

إنه يخصص لتلك الكتب الجليلة وقتا طويلا في كل مساءاته الهادئة .. إن مكتبته العزيزة عليه أكثر من أي شيء آخر لتزخر بعلوم الهنود والصينيين والبابليين والفارسيين والمصريين والرومان واليونان والعرب المسلمين ..

وبها ثلاث نسخ قديمة ونادرة من الكتب السماوية : توراة اليهود وإنجيل المسيحيين وقرآن المسلمين ..

ثورة ..

قال (الراوي) بعد قرون من الاستعباد الظالم، والجوع الكافر والعري السافر والخوف القاتل، والتشرد السافل، والنوم في العراء ..والاعتصام بقمم الجبال ..
بعد تردد وتسويف وتخاذل وانكسار ..
عصفت رياح الثورة بعد مخاض كبير،
وكان لها أن تعصف قبل هذا الزمن بكثير..
ولكن هيهات .. هيهات...
كان التراس البطل الهمام في مقدمة الأبطال الذين قرروا أن يهبوا أنفسهم وأرواحهم فداء للوطن الغالي ويلقنوا العماليق درسا في التضحية من أجل الحرية والكرامة. ولأنه كان ينتصر في كل معاركه مع الأعداء صار حديث الأطفال والنساء وصار محسودا من قبل الأصدقاء ورفقاء السلاح، كان كل واحد يتمنى أن يكون هو التراس دون أن يفكر كيف يكون مثل التراس بأفعاله وأخلاقه، ولم يصبح التراس مثل ما هو عليه مصادفة أو عبثا إنما كد واجتهد قرونا، ورسم لنفسه هدفا ساميا ..كان في وقت من الأوقات أكبر من حلم .. كان مستحيلا ..
لذلك صار هدف الأعداء " العماليق " حيث وضعوا له الخطط ونصبوا له الشرك للقبض عليه واغتياله، واشتروا نفوس بعض من حسدوه وبغضوه وكرهوه وآثروا خيانته لينوبوا عنهم،

ولكنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، لأن الأشجار والأطيار التي تحبه وتقدره كانت تحميه بنفسها من مكائدهم. وكان التراس سعيدا بذلك الحب النقي المنزه عن كل منفعة أو أي تملق ..

كما كان مرتاح البال، يفترش الغمام وينام ملْء جفونه.. كيف لا، وصديقه الوفي اللقلق يحرس ظهره من كل طعنة خائنة ويفديه بنفسه ..

لما عجز العماليق عن القبض عليه والفتك به ليتجنبوا ضرباته القاتلة، وفتوحاته العظيمة في تحقيق المستحيل، قايضوا رأسه مقابل حرية كاملة للوطن ..

المهم اتضح ما كان خافيا من تفاصيل المؤامرة وهو أن لا ينعم التراس باستقلال وطنه وأن لا يتزوج حبيبة قلبه ست الحسن، وأن لا يتوج حاكما أبديا لوطن الشمس .. حيث ستزف حبيبته إلى عريس غير الذي اختاره قلبها .. مثلما حدثته جدته العظيمة " نانّا خدوج" ..

حديث نانا خدوج ..

قال (الراوي) الحقيقة يا سادتي: إن المرأة التي سيحبها ويضحي من أجلها فارسنا التراس، ستكون أكبر من امرأة تعرف كيف تتدلل وتتغنج وتهتم بزينتها ومظهرها لتستدرجه إلى مخدعها لتبادله الغرام. بل ستكون امرأة من طين خاص ..
أميرة من معدن خالص مثل "اللويز"..
اسمها "ست الحسن"، بنت أصل، وحسنها يختصر زين القبايليات والنايليات والمزابيات والتارقيات والشاويات.. والمصريات والشاميات والحجازيات والأندلسيات ...
هكذا حدثته جدته البربرية العظيمة "نانا خدوج" عن رؤيتها، وهي على فراش الموت في نهاية قرن مظلم تعيش بالخرافات والدجل بعد اجتياح برابرة البزنطيين والوندال شمال إفريقيا حيث عاثوا فيها فسادا..
وكان يومها شابا يافعا يرعى قطيع جدته في مروج المتيجة وسفوح جبال الأطلس على عادة أجداده "النوميد" في فجر التاريخ المنقوش على جبين الطاسيلي الشامخ.. ويردد للطبيعة العذراء سير الأبطال ماسينيسا يوغورطة، يوبا الأول، وتاكفاريناس، هؤلاء الأبطال الأشاوس الذين صنعوا مجد وطن الشمس.
وسبحان الذي كرم عبده التراس
وجعله راعي أمة بعد أن كان راعي قطيع ...

كان التراس بطلنا الهمام، يؤمن بنبوءة جدته العظيمة التي أخبرته بها قبل أن تغادر الحياة إلى العالم العلوي. لقد رفضت أن تدفن مع الأموات وطلبت أن تحرق جثتها كما هي عادة الهنود ويرمى رمادها في الوادي الكبير حتى تظل تحرس مياهه المتدفقة، وتباركها، حتى لا يحول دون تدفقها حائل .. إنها تعرف جيدا أن مصير السلالة مرتبط بتدفق مياه الوادي . هناك أطماع كثيرة من أقوام وراء البحار، يرومون وضع سيطرتهم على الوادي ليحولوا مجراه، لينفردوا بمنافعه ويحرموا أبناء الوطن من خيراته.

كانت "نانا خدوج "دائما تؤكد:

- فقط، البحر .. البحر .. احذروا ..

لقد حمى ظهوركم ربكم بدرع الصحاري ..
واجهوا أمواج البحار العاتية
بتعلم التجديف وركوب المخاطر ..
من يأتكم برا
افتحوا له الأحضان
وهيئوا له الخيام
وتقاسموا معه ملحكم ..
ومن يأتكم بحرا
ملوحا بكتاب،
فاحذروه
إنه يخفي في سرواله
خنجرا أو مسدسا.
سيعطيكم الكتاب

ويأخذ أرضكم ودوابكم
وزيتكم، وقمحكم وشعيركم
ورمانكم وتمركم وعنبكم ...

لقد عمرت "نانا خدوج " قرونا حتى ظن الناس أنها خالدة. استقبلت عوليسة الفينيقية يوم حطت سفينتها بشمال إفريقيا، وحضرت وضع حجر الأساس لقرطاجنة المدينة العجيبة، محسودة روما، والأسطورة التي سترث حضارة الشرق على الساحل الإفريقي، التي مازال حديث نبوءتها ينساب في أعماقه كما مياه الوادي الكبير قبل أن يغتصبه أشرار العماليق :

- يا ولدي،

أنت ضمير السلالة الصالحة
التي سترث تراب هذا الوطن
شبرا شبرا وذرة ذرة ..
كن أنت ولا تكن الآخرين ..
كن سنديانة ولا تنحن
إلا للريح العاتية حتى تمر ..
لا تخف الجبارين
ولا تظلم من هو دونك قوة ورهبة،
لا تتكبرعلى من هم دونك مكانة،
تواضع مثل الشمس
فرغم علوها تغمر البشر
بأشعتها الذهبية الدافئة ..
وحاول أن تكون وفيا لغيرك
مثل وفاء ظلك لك ..

واربط غرائزك
بحبل عقلك المتين
لأن الغرائز كلاب مسعورة
تؤذي من حولك
ولاتجلب لك إلاّ الأذى والعار ..
لا تفتش عن المرأة بين جنبيك
حتى لا تصرف نظرك عن مصيرك ..
لتكن عيناك منارتين
معلقتين بأهداب السماء
تضيئان الشطآن
وتهدي النفوس التائهة الحيرى ..
يا ولدي ..تتهافت عليك الصبايا
وتتساقط بين ذراعيك
كما الثلوج على قمم جبال
الشريعة الشامخة
في الشتاءات الباردة..
لا تهتم بالعيون المكحولة
والخدود الموردة
والنهود الشاردة ..
إنها فتنة الطبيعة
ورغبة الغريزة الجامحة ..
دع النساء يتبعنك حيث تريد
ولا تتبعهن حيث يردن ..
كلمة صدق صريحة منك
تحول خفقان قلوبهن
إلى مدافع قضية..

وتصبح الحياة فرحا دائما
حينما ينقشع ضباب الأحزان
في ربيع العمر.
يا ولدي : المرأة التي تحبها
من أول نظرة
وتحبك من أول نظرة أيضا
يتهافت عليها كثيرون
الملوك والسلاطين
والأكاسرة والقياصرة
والأمراء والسفلة والرعيان..
و لن يستطيع أحد
أن يفوز بها سواك ..
رغم ما ينالها من أهوال بسببك ..
واحذر يا ولدي ..
فبسببها يكرهك الأصدقاء
ويكيدون لك كيدا مع الأعداء ..

مأتم في عرس التراس ..

قال (الراوي) يوم خرج التراس البطل ورفاقه إلى المعركة الفاصلة مدججين بالإيمان والعزيمة، بعد قرنين من الكفاح والتضحية بالأرواح في سبيل حرية الوطن وكرامة الناس،استطاعوا أن يشتتوا شمل آخر فيالق جيش العماليق التي تحرس السد بالمدافع وتنصب على أسواره الصلبان. بعد أن أبلوا البلاء الحسن وكان سلاحهم الصبر والشجاعة والإيمان .. كيف لا ؟ ووطنهم الغالي يستأهل كل تضحية وكل خير .

لما وصلوا إلى السد كانت الشمس تلفظ آخر أنفاسها وراء القمم الشاهقة وكانت الخطة تفرض الانتظار حتى الصباح لتهديم السد ولكن بعض الأصوات أصرت أن يتم كل شيء ولو تحت جنح الظلام المهم الانتهاء من المهمة بأسرع وقت ممكن ..وكان التراس أول المتقدمين بفأسه كما كان أول المتقدمين بسيفه فهوى علي الجدار الضخم بضربته القوية فتشقق، كأنما زلزال عنيف ضربه . ثم انهال عليه الجميع حتى تهدم وتدفق الماء العذب ... كما كان يتدفق منذ آلاف السنين عبر الزمن وملأ مجرى الوادي الكبير وفاضت ضفافه وفرحت الحيوانات والأطيار والنباتات بعودة المياه إلى مجاريها واستعدوا لإقامة حفل كبير على شرف التراس البطل ورفاقه يتوج فيه حاكما

أبديا لبلاد الشمس.. وكانت "ست الحسن " تنتظر هذه الفرصة منذ زمن طويل ولكنها كانت خائفة من المجهول ..هل حقا سيعود حبيبها التراس كما وعدها ويجمعهما سقف واحد إلى الأبد لتنسى محنتها الكبيرة ..؟ ولما تدفقت المياه العذبة كما كانت تتدفق، في القرون الخوالي، في الوادي الكبير..كان أول من بشرها الأسماك المغتربة التي اشتاقت إلى رائحة البلاد .. كانت تحمل غربتها حقائب على ظهورها وتحييها بزعانفها معبرة لها عن تشوقها وحنينها.. وفهمت أن التراس قد حقق أمنيتها وأرسل مهرها الذي عجز عن جلبه كل الفرسان الذين تحملوا مشاق الوصول إليه.
هبطت مسرعة إلى ضفة الوادي في تلك الليلة المظلمة حيث أغمض القمر -حياء- عينيه خلف الغمام، لما نزعت ثيابها لتستحم وتتطهر فأضاء جسدها الكون كله .. ثم تجملت بألوان الربيع المزركشة وأفرشت مخدعها بالسجاجيد الفارسية وأحرقت بخور الهند والسند ورشت كل أنواع طيوب الشرق وأشعلت شموع البهجة والرغبة.. كانت قد وعدته بدورها بعرس لم ير ولم يسمع به أحد على وجه الأرض. والحقيقة أنها كانت متلهفة لتعيش لحظة العمر كما تعيشها أي أنثى بالغة، بعيدا عن كل التفاصيل السياسية ..
وفي تلك اللحظة الجميلة التي أضاء نور جسدها البلوري الكون التفت الرفاق إلى بطلهم التراس ليحملوه على أكتافهم، تعبيرا منهم عن

حبهم وتقديرهم، فلم يجدوه .. كل الوجوه حاضرة حتى التي لم تكن سباقة لطعن الأعداء ومواجهة جبروتهم وطغيانهم. كان البطل قد اختفى ولم يستطع أحد منهم أن يؤكد أنه رآه في مكان بعينه بعد أن هوى على السد بضربته القوية فزلزله. كل الأنظار كانت مصوبة إليه. لأنه كان يتمتع بقوة خرافية يحلم بامتلاكها كل الرجال.. وفجأة تحول عرس الانتصار إلى مأتم فيه بكاء ونواح..

وهكذا لم تكتمل فرحة النصر..

يا للتعاسة .. قال بعضهم قد يكون الماء جرفه بقوة بعد أن تصدع جدار السد .. وقال بعضهم قد يكون "العماليق " خطفوه ليقايضوا به جزءا مهما من تراب وثروات الوطن. وقال بعضهم قد يكون الخونة المندسون بيننا هم من اختطفوه ليبيعوه للأعداء ويقبضوا ثمنه امتيازات ونياشين. لم يكن أحد يصدق ما حدث في ذلك اليوم الذي لم تدم فيه فرحة النصر إلا لحظات .. في طرفة عين، صار يوم النصر يوم نحس وكآبة..

اقترح بعضهم أن لا يعودوا إلى ديارهم حتى يجدوا التراس ويعودوا به حيا ليتزوج ست الحسن وينصبوه حاكما أبديا أويجدوه ميتا فيقيمون له جنازة عظيمة تليق بمقامه، ويبنون له ضريحا ضخما يصبح مزارا لكل الشعوب التواقة إلى الحرية والنصر وتحقيق المستحيل. ولكن الأصوات الغالبة كانت ترى أن يرجعوا جميعا إلى ديارهم ويؤجلوا فرحتهم حتى يعود أو يعلم الجميع سبب

الاختفاء العجيب ...

وبعد أن عاد الرفاق يحملون بيارق النصر على سيوفهم والخيبة على وجوههم. كان "اللقلق" قد سبقهم وتطوع بإخبار "ست الحسن" بالاختفاء الغامض للتراس البطل. فلم تصدق بادئ الأمر، ظنته يمزح ليزيد من شوقها إليه، ليلهب أكثر مشاعرها الملتهبة، وهو صديقه المخلص الذي ظل ينقل أخبارها إليه ويتمناها حليلته ..
بعد أن عاد الناس وتأخر وصول موكب التراس، صدقت ساعتها، ست الحسن رواية اللقلق .. فلطمت خديها ونزعت ملابسها الجميلة وكل ألوان وأصباغ الربيع التي تزينت بها.. وارتدت سواد الليالي وراحت تندب حبيبها التراس المختفي وحظها التعيس .. وتحولت فجأة من طاووس يتبختر بزيه وينثر السرور والبهجة على من حوله إلى بومة كئيبة ..
كانت ليلة ليلاء وأسابيع عصيبة وسنوات لعنة ..
كيف يسرق النصر في يوم حصاده وتنزع البسمة من الشفاه في يوم تفتح أكمامها؟ كيف يقلع الضرس غير المسوس بعنف غير رحيم ؟
لم يكن أحد يصدق أن ما حدث حدث، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن كما يقال..

فلسفة التراس وحماقة رجال وطن الشمس

قال (الراوي) كان رجال وطن الشمس بدورهم يقومون بحماقات اتجاه التراس فيتهافتون عليه، في كل وقت غير مقدرين شعوره واهتمامه وانشغاله، ليخطبوه لبناتهم البالغات، حبا في مصاهرته وتقربا منه لأنه رجل عظيم ليس مثله أحد من الرجال، فيوقظونه من نومه أو يقطعون خلوته وهو منكب على أمهات الكتب يستخلص تجارب الشعوب والأمم الغابرة أو منقطع عن نفسه متأملا الكون ومتحدا مع الطبيعة أو منقطعا إلى نفسه مستبطنا أفعاله وسلوكاته اليومية، أو راكعا ساجدا شاكرا خالق الكون والكائنات على كل النعم -التي أنعم بها عليه وعلى وطنه الغالي- وطالبا منه العون على حرب الأعداء العماليق لتخليص وطن الشمس من شرورهم، أو يعزف لحنا شجيا على الناي أو الكمان أو منهمكا في عمل عضلي ما يحول فيه الأشياء التافهة إلى أشياء ذات قيمة..

ولأن قلب التراس واسع مثل سماء الوطن الغالي، كان يسع حماقات أبناء وطنه .. لم يكن يرد هؤلاء الرجال الخاطبين أو يثور في وجوههم ولم يطرد يوما -من داره- واحدا منهم .. غالبا ما يتهرب بلباقته المعهودة من طلباتهم الساذجة، ويقول لهم في

سخرية حزينة:
ما للتناسل فقط خلقنا أيها الأصدقاء ..
ما للأكل فقط خلقنا أيها الإخوان ..
ما للشهوات فقط خلقنا أيها الرفاق..
حياتنا نحن البشر أعظم،
وأوسع من أن نختصرها
في الأكل والتناسل والشهوات ...

أصدقاؤنا من الطير والحيوان والنبات يمارسون هذه الوظائف غريزيا، لقد تكفلت الطبيعة بذلك وعلينا نحن السلالة الآدمية أن نكمل تفاصيل، تحسين وضعية السلالة، حيث لا يستطيعون. علينا نحن من كرمنا الله أن نسمو بأنفسنا على غرائزنا، وعلى أجسادنا المتهافتة على الملذات والمعاصي ونرتقي حيث نستطيع إنّنا عكس كل مخلوقات الله، هم لا يتغيرون ولا يتبدلون، بينما نحن نحلم ونفكر ونعمل ونطور..
وإذا .. نحن ما نحلم ..
ونحن ما نفكر..
ونحن ما نعمل ..
ونحن ما نطور ..
نحن ما نستطيع ..
هناك الحرية يجب أن نهبها شرايين دمنا الزكي ونموت من أجلها.
هناك الكرامة يجب أن نتطلع إليها ونحلم بها.

هناك المساواة يجب أن نناضل و نعيش من أجلها ..
شيئا وحيدا، لا يستطيع هؤلاء الرجال أن يتفهموه ولا يجرؤون على أن يسألوا التراس عنه، كيف نحارب العماليق ونحن لسنا في مستوى قوتهم وبطشهم وهم يملكون وسائل الحضارة ووسائل البطش ..؟
والحقيقة أنه كان يفهم ما يدور في نفوسهم، ولذلك يحاول بلباقته أن يزيل غبار الأوهام التي ترسبت في أذهانهم، حتى يعرفوا ويدركوا ما يدور حولهم فيقول لهم :
أعرف أن الخوف من العماليق يسكن نفوسكم ..
أسكنوا الخوف ولا تدعوه يسكنكم ..
قاتلوه وتغلبوا عليه،
قبل التفكير في مقاتلتهم،
عدوكم الأول هو الخوف
أطردوه من نفوسكم ..
سيصبح طرد العماليق سهلا من أرض الأجداد الطاهرة وسيصبح تهديم السد العظيم أسهل لتعود مياه الوادي الكبير إلى مجراها وتعود الحياة إلى قلب الوطن وقلوب أبنائه الأمجاد ..
هكذا كان التراس يفلسف الحياة لزائريه ويحاول جاهدا أن يبذر في نفوسهم شيئا مما أتاه اللّه من حكمة، فيعودون إلى بيوتهم وقد زالت تلك الغشاوة التي على أعينهم..
فكأنهم يرون الطبيعة لأول مرة ..

وكأنهم يرون بعضهم لأول مرة ..
وكأنهم يرون أولادهم لأول مرة..
وكأنهم ينامون مع زوجاتهم لأول مرة..
وكأنهم يكتشفون أنفسهم لأول مرة ..
ولهذا، كان يحلو له دائما أن يردد على مسامع زائريه :
- أنا متزوج قضية .. وعندما أجد من خلقت من أجلي، التي هي في انتظاري الآن في مكان ما من هذه الجغرافيا المترامية، وفي ربوع براري وتلال وهضاب وجبال بلاد الشمس، وطني العزيز، لن أتردد لحظة في الاقتران بها والتضحية من أجلها ولن أكون أقل حبا ووفاء لها من العشاق الذين تناقلت أخبارهم كتب التاريخ والأدب ..
كان التراس فارسا شهما ونبيلا وأكثر من ذلك كريما يبسط يده كلها ولا يردها في وجه زائريه، فهو غالبا ما يهدي من يزوره -خاطبا لابنته- أي شيء يكون بيده أو قريبا من يده أو نظره مهما كان ثمينا وعزيزا عليه وعلى قلبه
إلا الكتب فإنه يترجى من آخذها أن يعيدها إليه بعد الانتهاء من قراءتها، ليناقشه أفكارها. أما بقية الهدايا فإنها لا ترجع ..
وهو من أهدى الجنرال بودبزة خمسة نجوم، ليكون على رأس الجنود المقاتلين .. كما أهدى كمال الصحافي قلما لا يكتب إلاّ الحقيقة، وترجاه أن يفضح الظلم حيث كان، وأهدى الإمام سي الهادي النسخ الثلاث من الكتب السماوية: التوراة

والإنجيل والقرآن ليعلم الناس أن جوهر الدين واحد .. فالرب واحد والرسالة واحدة. والأخلاق واحدة ولما تعددت الرسل وتعددت الأقوام والألسنة .. تعدد الفهم .. حتى أنحرف ..
وأهدى المحافظ دساتير الأمم الغابرة والحاضرة، وأوصاه أن يختار للأمة ما يناسبها ويتماشى مع معتقداتها ..
دائما، يعود زائرو التراس فرحين بالهدية التي يفوزون بها من يده. وأكثر فرحا باكتشاف نبراس حكمته الذي يضيء لهم أفق الحياة الرحب بعد أن كان موشحا بضباب الجهل وقصر النظر.
قولوا معي أيها السادة الأكارم هل هناك من هو أكرم وأنبل من التراس فارسنا العظيم الذي يقصده رجال وطن الشمس لخطبته لبناتهم البالغات وهم لا يدرون أنه تزوج قضية أمة ؟

شهلة والتراس وكلام الناس ..

قال (الراوي) ولأن رجولة التراس المترفعة المكابرة المتسامية كانت فريدة من نوعها، ولها نكهتها الخاصة، ووقعها المميز على القلوب العاشقة، كان حديث النساء حين يخلين إلى بعضهن في أسمارهن.

وكانت كل فتيات وطنه معجبات به يخفين ملامح كبريائه تحت وسائدهن ليتأملنها قبيل النوم علهن يظفرن بمغامرة معه في منامهن. وكثيرا ما يختلقن تلك المغامرات الساذجة ليتنافسن بها على بعضهن البعض.

ونظرا للتقاليد المحافظة السائدة في المجتمع، كانت النساء المتزوجات، يكبتن إعجابهن به ويتأسفن لأن أزواجهن لا يحملن ذرات صغيرة من صفاته الكاملة، بينما كانت المراهقات والعوانس تعاكسنه وتقمن بحركات إباحية ساذجة طالبات منه أن يخطفهن ويرحل بهن على صهوة "جواده الريح" وينصب لهن خياما فوق الغمام ليقضين إلى جنبه بقية العمر يخدمنه .. يمشطن شعره ويغسلن قدميه، ويؤنسن وحدته. ولم يكن يرد عليهن إلا بابتسامته الساحرة الساخرة، ويتأسف بلباقة وطيبة:

أنا لست زير نساء،

وخطف بنات وطني

ليس هوايتي،

وشرفي لا يسمح
لي أن أصبح نخاسا
يبيع ويشتري
أعراض أخواتي ..
كيف أغرر بكن
وقد رضعنا جميعا
ثدي هذه الأرض
أمنا الحنون.

ذات صباح ربيعي، ندي، عبق بأريج أزهار الدفلى، يقال حين تنور الدفلى تشتعل شهوة الطفلة، كان الفارس التراس يتأهب للرحيل على حصانه الريح، فتجرأت شهلة بنت الإمام سي الهادي، واعترضت طريقه، وأمسكت لجام حصانه الريح قائلة وهي تكشف عن فخذها البض وصدرها المرمري:

- أيها الفارس العازب.. إلى متى تشيح عنا بوجهك الجميل وتطعن قلوبنا برمح كبريائك؟ لم تقفل قلبك دوننا بالتقوى والتعفف؟ لم لا تعطي قلبك حقه مثلما تعطي عقلك؟

إنّ قلبي امتلأ وفاض بغرامك، إني أحبك، وأعشقك وأترجاك أن تخطفني وتجعل جسدي سرج حصانك الريح، وتطير بي حيث تشاء لأعيش بالقرب منك أخدمك وأسليك. كبلني واسبني واجعلني جاريتك.. كن سيدي.. سأكون خاتما في إصبعك.. أريد أن أتخلص من طوق والدي وجحيم زوجاته..

ولكنه بعد أن استمع إلى حديثها ربّت على

كتفها فاقشعر جسدها وسرت حمى فيه، وشعرت كأن أنوثتها قد فضت لحظتها فشهقت مثل الجحيم وتهاوت على الأرض، فحملها بين ذراعيه وأعادها إلى بيتها سالمة، بقيت في غيبوبتها قرنا كاملا ولما استيقظت سمعت صدى أنفاسه تهمس في أذنها:

- هذا شوق الطين إلى الطين يا صغيرتي ..
- لا تتعلقي يا أختاه بالفاني
- انه لا محالة زائل،
- امنحي قلبك و كلك للأبدي الخالد ..
- كوني الغيمة ولا تكوني القطر ..

انفجرت باكية، وراحت تمزق ثيابها، وتقطع شعرها، وتندب حظها وتدعوه لركوب المتعة .. لكنه أشفق عليها، فتركها وأطلق العنان لحصانه الريح الذي انتصبت شهيته وكانت نواياه سيئة ..
ومنذ هذا اللقاء الذي تنـاقلته ألسنة السوء متهمة بنت الإمام بسوء الأدب لأنها تجرأت وعرضت على العازب نفسها، أصبحت العاشقة التي تعلقت به واضطرت لتكسير طوق التقاليد وعرضت عليه نفسها دون حياء .. ولأن عشقها أصبح جنونا، أصبحت تشيع بين النساء أنها وهبته عذريتها وهو يلتقيها بعيدا عن الأنظار، وينام معها فوق الغمام .. ثم أصبحت تدعي أنها حامل منه وتنتظر منه مولودا فريدا في جماله وقامته وكبريائه ولطفه .. ولما مرت عليها شهور الحمل

الكاذب لم تنقطع دورتها ولم تلد مولودها الوهم ... عادت إلى رشدها ثم شرعت في قراءة الإنجيل الذي أحضره ذات مرة والدها من عند التراس .. اعتزلت الناس، وأصبحت راهبة في دير ناء على ضفاف الصحراء، تسقي الرحالة وتخدمهم، وتعلمهم مواعظ المحبة التي جاء بها المسيح .. كانت تردد دائما قصة المرأة الصالحة التي غسلت قدمي المسيح بعطرها الغالي وبدموعها التي استهجن يهوذا الخائن إسرافها، كما كانت تردد حكاية الزانية التي قبض عليها حماة الشريعة متلبسة بالزنى، فأحضروها إلى المسيح وقالوا له: الزانية في شريعة موسى ترجم، فبم تحكم أنت؟.. فقال لهم قولته المفحمة:

- من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر ..

ودأبت على ديدنها قرونا لكن شهوتها استيقظت كما البركان فعادت إلى دينها دون أن يكرهها أحد على ذلك وفضلت أن تلوك الألسنة في سيرتها وتتهم بالعهر وسوء الأدب على أن تبقى راهبة تتصنع العفاف في ديرها التعيس ..

ما أغرب شهلة بنت الإمام ..

وما أروع أخلاق فارسنا التراس ...

تحزن عليها قلوب هؤلاء النسوة عندما يغيب سنوات وقرونا وراء غزواته وفتوحاته، في مشارق الأرض ومغاربها..

ونفسها القلوب تتأسف خلف أسوار الصمت، وكذا قلوب الفتيات المندفعات المتحرشات تخفق

وتستعد استعداد الجوقة العسكرية لأداء النشيد الرسمي، عندما يمر بالقرب منهن عائدا من سفرته الطويلة، ممتطيا صهوة جواده الريح، ظافرا بالنصر ومعطرا بالخزامى وبالطيبة والتواضع، متمنطقا بالحكمة.

حديث العرافة الحاجّة غنوجة ..

قال (الراوي) كانت العرافة " غنوجة" معروفة في ذلك الزمان بقراءة الكف والطالع وضرب خط الرمل، وكانت معظم قراءاتها تصيب ولا تخيب،، كذب المنجمون ولو صدقوا ..لقد ورثت التراث السحري للبابليين والمصريين والعبرانيين وتراث الخليفة الزناتي، بعد مصرعه على يد ذياب الزغبي .. لما سمعت حكاية "ست الحسن "شدت رحالها إليها، وتجشمت مشاق السفر، تسلقت قمة الجبل الذي احتمت به، ولما قرأت كفها وضربت خط الرمل قالت لها:

- **أنت بنت أصل**
وستكونين أميرة
وطن الشمس..
خلقك الله فتنة الجمال،
وستصبحين فتنة الرجال ..
قدرك عال ..
ومهرك غال ..
وحبيبك رجل من خيال ..

أشفقت العرافة "غنوجة" على "ست الحسن" في وحدتها، فاقترحت عليها نسج البرنوس الخرافي للعريس القادم .. وأخبرتها أن حبيبها سيأتي من الأندلس مترنحا على صهوة جواده الريح، ويسقط في حجرها من السماء مثل المطر فيسقي روحها من ظمأ القرون، وهي من تضمد جراحه وتسقيه اللبن، وتنقذه من التيه والهلاك،

وعندما يقيس البرنوس الخرافي يكون على مقاسه دون غيره. وهو من يقضي على العماليق الأشرار ويهدم السد اللعين .. ولكن يحدث ما لم يكن في الحسبان .. وساعتها لكل حادث حديث ...

ست الحسن ..

قال (الراوي) في يوم أندلسي خريفي حزين، مدهش، عبق بالمشاعر الجياشة، والانكسار، التقى التراس "ست الحسن " وهو عائد منهكا من إحدى غزواته الأندلسية في ربوع التاريخ الشامخ بالأمجاد والبطولات والتضحيات، كان ذلك على ضفة الوادي الكبير، وكان فارسنا يترنح على صهوة جواده الريح الأصيل، مثل غصن صفصافة سامقة في مهب ريح عاتية، فاقدا كامل وعيه، وقد أنهكه السفر، وجراحه المثخنة، وحزنه العميق على جيشه المنكسر على صخرة الخيانة .. وكانت الغيوم مكفهرة وحزينة، فاعتصرت مآقيها حتى احمرت مثل شفاه الصبايا، لكنها لم تستطع

منحه حفنة ماء يروي عطشه، لأن القدر الجميل كان يرتب له بعد هذا العسر مع حبيبته "ست الحسن" يسر لقاء العمر..

وكانت "ست الحسن " التي جمعت زين القبايليات والتارقيات والمزابيات والشاويات والنايليات، والأندلسيات والشاميات والحجازيات والمصريات، بنلوب الوفية التي جاء ذكرها في الأساطير اليونانية .. طوال قرون تنسج من الصوف الناصع البياض "برنوسها "الخرافي الذي لا يضاهي نصاعته سوى ثلوج القمم الشامخة، وقلبها الطيب الحنون ..
كانت تدندن لحنا تراثيا متواترا جميلا..
حين سقط كوكبا ملتهبا من عليائه.. صارمسيحا في حجر مريم الطاهرة، ولما فتح عينيه وعادت روحه إليه، وجدها قد وسدته ركبتها ثم سقته لبنا وغمرته حنانا، فشعر بدفء لم يشعر به من قبل قط .. وحين التقت عيناه بعينيها الواسعتين اشتبكا عاما كاملا، حيث نزعت براقع الحياء التي ظلت تلبسها وتختفي وراءها ونزع بدوره دروع البطولة الثقيلة وغطس في أعماقهما وغسل روحه من غبار الأيام المتوالية الرتيبة، فالتأمت جراحه المثخنة ودفئت روحه من صقيع الوحدة وشعر في تلك اللحظة الجميلة كأنه يولد من جديد في فجر تاريخ جديد ينبض حركة وحيوية.
لم يشك لحظة في نبوءة جدته العظيمة " نانا خدوج " -

لقد تجلت قبالة ناظريه- وهي التي كانت قد أنبأته بها ذات تاريخ حافل بالشعوذة والدجل، وهي تغادر هذا العالم إلى مثواها الأخير حيث ترقد إلى الأبد ..

ولم تشك "ست الحسن" بدورها في الفارس الذي حدثتها عنه العرافة "غنوجة" الذي تنتظره بشوق منذ قرون ..

تعانقت روحا العاشقين وتوحدت في روح واحدة عظيمة وشربت من كأس واحدة عهد الوفاء .. في تلك اللحظة الجميلة كان الكون بأكمله يعزف سيمفونية الحب الخالدة التي لحنتها الطبيعة احتفاء بلقاء الحبيبين ..

واشتعل الجسدان في كانون الرغبة ..

كان التراس قد سمع عنها من قبل، ورسم لها صورة في خياله، ثم شرع في رسم لوحة لها مستغلا التفاصيل التي نقلها إليه صديقه اللقلق.

ولكن هيهات ..ليس من رأى كمن سمع ..

هذه الأميرة الفاتنة ليست إلا البنت الوحيدة لحاكم بلاد الشمس، نجت من الإبادة التي لحقت بأسرتها وبشعبها بعدما استولى "العماليق" على الوطن وحوّلوا مياه الوادي الكبير الذي كان عصب الحياة والسعادة في البلاد بإقامة سد عظيم كان شؤما كبيرا على حياة الناس والكائنات الجميلة.

كانت زمنئذ "ست الحسن"، زهرة في عمر الربيع، فهربت متنكرة في زي بذرة وحملتها رياح خفيفة بعيدا عن الخطر، دون أن يراها أحد وتحصنت في الجبال الشامخة كما تحصن فيها أجدادها من قبل

من كل غاز كاسر. هناك استقرت في القمم الشامخة طاووسا جميلا وأصيلا. وتفتحت أكمام أنوثتها زهرة ياسمين تنشر عبقها الفواح مع تباشير الصباحات الندية. هناك في القمم الشاهقة حيث لا يمسسها أحد بسوء ..
وحتى تشغل نفسها في وحدتها، امتثلت طائعة لاقتراح العرافة "غنوجة"، فبدأت تنسج برنوسها الخرافي لحبيبها الغالي القادم الذي يخلصها من العذاب ويخلص وطن الشمس من "العماليق" ويهدم السد العظيم، ويعيد مياه الوادي الكبير إلى مجراها لتعود الحياة كما كانت منذ آلاف السنين ..

حديث العاشقين ..

قال (الراوي) كلما سمع أحد من الملوك والسلاطين والفرسان والثائرين واللصوص

والمحتالين حكاية "ست الحسن" التي هربت في زي بذرة ونبتت في قمة الجبل زهرة ياسمين، حيث تفتحت أنوثتها، وهي مشغولة بنسج البرنوس الخرافي لحبيبها الغالي القادم من عمق التاريخ، تقدم واثقا لخطبتها، ظانا دون خجل أو وجل أنه الرجل المطلوب..

يا لبؤس الرجال الذين لا يعرفون قدرهم ..

يا للخجل ..

ولأنها بنت الحسب والنسب والزين والكمال، لم يزدها تحصنها بالقمم الشامخة إلا تواضعا. وكلما تقدم عريس يطلب يدها ترحب به ولا ترده خائبا، بل تكرمه وتقدم له برنوسها الخرافي الجميل وتقول له: إنه لـــمن ينتظره قلبي. فان كنت أنت وكان على مقاسك قبلتك زوجا وأطلعتك على مهري.

ويا للدهشة. .

كان كلما قاس البرنوس الخرافي أحد الخاطبين المتهافتين وجده أكبر منه فيعود خائبا من حيث أتى، بل وقد لا يعود إلى الأبد، لأنه قطع عهدا أمام الناس بأنه سيظفر بقلب ست الحسن ويعود بها ليكون حاكما أبديا لوطن الشمس .. وكان بعض الخاطبين الذين يصرون على عدم تقبل الأمر الواقع وفكرة البرنوس الخرافي يترجونها أن تطلعهم على مهرها، وبطيبة قلب لم تخذل أحدا . تسلمهم السيف الذهبي وتقول لهم اذهبوا وقاتلوا العماليق وهدّموا السد اللعين لنسترد

مجد الأجداد المسلوب وتعود مياه الحياة والخير إلى مجاريها.. ولكنها كانت دائما تصدم لأن الذين يأتون متشوقين يقطرون صبابة طالبين يدها، لا يعودون أبدا: إما يقتلون بالرصاص أو يشنقون في الساحات العامة أو ينفون إلى أقاصي أرض "كاليدونيا"، وحينما تصلها أخبارهم غير السارة، وتعود أطيار السنونو بسيفها الذهبي، تترحم عليهم وتغلق وراءها نوافذ الحلم وتعود في اطمئنان العذارى إلى نسيجها من جديد غير مكترثة، وهي متأكدة من قدوم فارسها الهمام الوسيم ممتطيا صهوة جواده الريح مسربلا بالبطولات والمجد.. كما أخبرتها العرافة "غنوجة".

الفارس العريس، صاحب البرنوس ..

قال (الراوي) لم يتردد التراس لحظة في طلب "ست الحسن" للزواج.. قال لها:

- أنت يا روحي، اللحظة الجميلة التي أخفتها لي في كفها الأقدار وحدثتني عنها "نانا خدوج" وطلبت مني أن أغتنمها فور العثور عليها.. فها أنا متداع على الأرض ورأسي توسد فخذك وعيناي نجمتان متشبثتان بأهداب أشعة وجهك المضيء مثل شمس الأصائل في سماء وطننا العزيز ..

قبلت" ست الحسن" عرض فارسها النبيل، قائلة له:

- دون ريب أنت هو من حدثتني عنه العرافة "غنوجة"، فظللت أنتظر قدومه وأنسج له البرنوس الخرافي ..كم جزة صوف غسلت، وكم مغزل غزلت، وكم ضيف خاطب استقبلت .. كان قلبي الولهان يخفق مع كل طارق باب وحدتي وعزلتي ولكن هيهات .. كم خاب ظني في هؤلاء القادمين المتلهفين المتطفلين .. كلهم خابوا..

مثل ثلوج الشتاء لما ظهرت شمس الحقيقة ذابوا ..لم يعودوا ولم يفوا بوعدهم مثل الأطفال غير الراشدين .. ولكنني لم أخيب النبوءة .. أبدا كنت دائما استبشر خيرا مع تبسم كل فجر جديد .. هيا أيها الفارس الحبيب قم وقس برنوسك الخرافي الأبيض العجيب .. الذي لا يضاهي بياضه سوى قلبي الذي يعشقك ..

قاس فارسنا التراس البرنوس..
فكانت المفاجأة التي انتظرتها قرونا "ست الحسن" . كان البرنوس الخرافي الأبيض على مقاس التراس وكأنه نسج له دون سواه، ومن شدة الفرحة تسلقت "ست الحسن" قامته وعانقته، وبكت على صدره مثل طفلة يتيمة قهرها الزمان. فاحتضن بدوره أنفاسها الحارة وتعطر بأريجها وسمعها تهمس في أذنه كأنما لا تريد أحدا من الإنس والجن أن يسمعها خوفا من العين والحسد:
- أحبك .. أحبك .. الآن بقي مهري لأكون حليلتك ويجمعنا سقف واحد وفراش واحد ومصير واحد ..
قبل فارسنا المغوار مهرها بكل سرور الأبطال ووعدها به في أقرب وقت ممكن مهما كلفه ذلك من ثمن وتضحية..
وقبل أن يغادرها سلمته السيف الذهبي البتار الذي طوله سبعة أمتار ومنديلها الحريري وقالت له:
- الآن أشهد الله والكائنات الحية والخرساء أنك زوجي وحبيبي الأبدي..عدني أنك لن تكون مثل هؤلاء الذين سقطوا في أيدي "العماليق" ولم يعودوا.عدني يا حبيبي أنك ستعود إلي سالما غانما رافعا راية النصر بيدك وخلفك تجر هزيمة الجبابرة "العماليق"..
فأجابها حبيبها التراس بشهامة الفرسان:
- أشهد الله والكائنات أنك زوجتي وحبيبتي

الأبدية. وأعدك أني سأعود إليك سالما غانما أجر خلفي هزيمتهم، وذراعي تلوح براية النصر..

قالت:

- سأنتظر عودتك المظفرة دون أن أبرح قمة جبلي الشاهقة، وحين تهزمهم وتدمر سور السد العظيم سأستحم في مياهه المباركة علني أعيش قرونا أخرى بقربك وفي معبد حبك مثلما عاشت " نانا خدوج "العظيمة، وأتطهر وأتزين لك بكل مساحيق الطبيعة وأتعطر بكل أطاييب الشرق الشذية ..لأهبك نفسي في ليلة تكون من أجمل ليالي ألف ليلة وليلة ..

وبدوره قال التراس العاشق:

- سأوقد لك جمر قلبي وأدثرك بشغافه لتعيشي تلك القرون في هناء وسكينة لا يمسسك فيها سوء، ولن يقربك صقيع الوحدة القاتلة ..

حديث حصان الريح واللقلق ..

قال (الراوي) أثناء تلك المناجاة بين التراس وحبيبة قلبه "ست الحسن"، كان "حصان الريح" وصديقه اللقلق يسترقان السمع ويتابعان المشهد الرومانسي الجميل..
تذكر حصان الريح نواياه السيئة اتجاه شهلة وهي تبكي وتتمرغ على الأرض راجية التراس أن يحقق لها متعتها.. كم كانت غبية حين قدمت عواطفها بتلك الطريقة الوضيعة.. وكم كان ساذجا لما راودته نفسه عن مواقعة الجسد الذي تعفف عنه سيده التراس..
وشعر اللقلق الذي يخفي في قلبه التعيس لـ "ست الحسن" حبا مرتبكا غير معلن، وآثرها لصديقه عن نفسه، خوفا وارتباكا، لأنه لم يعرف كيف يحبها ومن أين يبدأ حبها .. وهـاهو يرى بنفسه أن التراس أحق بها منه، لم يكن مخطئا لما تمناها له، وقدمها إليه، ثم نقل له تفاصيل أوصافها ودقائق أخبارها.
كم سرّ "حصان الريح" و"اللقلق" لأن صديقهما التراس كان رائعا في تلك اللحظات الرومانسية الجميلة –التي لم تحدث من قبل- ولم يكن أقل نبلا ولطفا من تلك الأميرة الرائعة الجمال التي سقته اللبن وألبسته برنوسها الخرافي الناصع، وأهدته سيفا بتارا من ذهب طوله بضعة أمتار. وملأت كأس قلبه حبا ممزوجا بالإيمان ونفخت في روحه

الثورة والتحدي، بعد أن كادت الخيانة تقصم ظهره.. وشهدا بدورهما على ذلك الزواج السعيد بين الحبيبين بعد قرون من الشوق والحنين والانتظار ...

الرؤيا ..

قال (الراوي) عـاد التراس العاشق الولهان في ذلك المساء مسرعا إلى بيته على حصانه الريح يشق الفضاء مزهوا متبخترا كالطاووس في برنوسه الخرافي الأبيض وجناحاه يحجبان أشعة شمس الغروب، شاهرا سيفه الذهبي البتار مثل البرق في وجه الرعود. وكانت كل كائنات الكون قد تركت مشاغلها وأوقدت شموع مشاعرها، لتشارك فارسها فرحته الغامرة، تتقدمهم بالزغاريد الصبايا اللواتي عشقته قلوبهن. وحدهن

النساء المتزوجات قبعن في مخادعهن يقضمن أظفارهن، وحسدن "ست الحسن" على صبرها الطويل وفوزها بقلب الفارس العظيم.
نام التراس العاشق في تلك الليلة فرأى في منامه أنّه سيحقق نصف مهر حبيبته" ست الحسن "، يقضي على الأعداء ويهدم السد اللعين ولكنّ يدا غادرة تطعنه في الظهر، وتحول دون الزواج من حبيبة قلبه، وهذه اليد الغادرة نفسها تأسر حبيبته وتنكل بها لتجبرها على الزواج المكره ولن يستطيع أحد إنقاذها منه سواه ..
وحين استيقظ في الصباح شعر ببعض الحزن والانقباض من الكوابيس التي أزعجته، كيف يطعن في الظهر ولا يفي بوعده لحبيبته، ثم ينقذها من براثن الخونة المتربصين ؟
- يا للخيانة التي لا تنتهي ..
ولكنه ما إن رأى الشمس تستيقظ من نومها وتمشط شعرها الذهبي وتنثره على صدر قمم الأوراس، وتلال المتيجة، وهضاب سطيف العالي، وسواحل الإسكندرية، ومروج لبنان، سرعان ما تلاشى ذلك الغمام الكئيب عن سمائه، وسخر من نفسه كيف يكون تعيسا للحظات، وبإمكانه أن يكون دائما فرحا مسرورا مثل الفراش .. ورغم انه افتقد لأول مرة صديقه اللقلق ليشاطره هواجسه فانه عزم على المضي في مشروعه غير مكترث بما رآه في حلمه..
وكان عليه أن يكون ريحا صرصرا،
يبشر بالثورة في ربوع التلال والجبال

ويدعو كل من يستطيع أن يحلم ..
ويفعل..
ويكون ..
من بشر وحيوان وطير
أن يحمل الشجاعة قبل السلاح
في وجه العماليق
لان الخطر يهدد الجميع،
والقضية قضية مصير ...
وهكذا كانت الثورة ..
وكان ما كان ..

النسيان ..

قال (الراوي) نعود إلى "ست الحسن" وما

جرى لها بعد اختفاء التراس ..
يوما بعد يوم بدأ الناس ينسون – والنسيان ظل الناس الثاني - ما حدث للتراس فارسهم المغوار الذي خلصهم من "العماليق" وأعاد مياه الوادي إلى مجراها الطبيعي وأعاد للحياة سرها ومعناها وبهجتها. ورفع رأس الوطن راية في القمم والأعالي .. لم يبق وفيا له إلا "ست الحسن" حبيبته الأبدية بنت الحسب والنسب .. بقيت ترتدي سواد لياليها الأرقة. وتذهب كل صباح إلى ضفة الوادي تتقصى أخباره بقلب الأنثى المفجوع في ليلة دخلتها. علها الأسماك تحمل إليها قطعة من لحمه أو عظمه أو ملابسه أو سلاحه .. أين سيفه الذهبي البتار الذي طوله سبعة أمتار؟ أين طيور السنونو التي كانت تتكفل بإرجاع السيف لما تكسر الأذرع وتقطع الرؤوس؟ إنها بكل بساطة لم تصدق ما جرى له. وأنه لا بد سيعود، لقد وعدها بأن يعود متوجا بالنصر، وخلفه يجر هزيمة الأعداء. ويتزوجها ويعيد لها أمجاد الأباء والأجداد..لم تكن تصدق أنه لن يعود إليها .. بل كانت مؤمنة بعودته مثلما جاءها في يوم من الأيام على "حصانه الريح" وطلبها للزواج بعد قرون من الصبر والانتظار ..
ولذلك كانت ترفض اقتراحات السلطات بإقامة جنازة رمزية له ودفنه في مقبرة الشهداء، وبناء قبره بالرخام والمرمر وكتابة اسمه على شاهد القبر بالذهب الخالص ليصبح مزارا لأبناء وطنه

يترحمون على روحه الطاهرة ويستلهمون منها كل القيم الجميلة التي كان يتوج بها رأسه في حياته ..
وكان الناس الطيبون في البداية –على سجيتهم- يظلون إلى جوار "ست الحسن" يواسونها حتى لا تشعر بالوحدة. محيطينها بعنايتهم واهتمامهم وتقديرهم وتكريمهم، فيخففون من آلامها ومصابها .. لكنهم سرعان ما انفضوا من حولها تاركينها وحدها تقاسي وتتعذب .
وما أشد أن يقاسي المرء ويتعذب بين الأهل ..

عودة ضمير اللقلق ..

قال (الراوي) لقد أصبح الناس يتحاشون التحدث إلى ستّ الحسن والاقتراب منها.. بعد قرار أصدرته السلطات زاعمة أن ذلك لصالحها .. ابتغاء راحتها ، وتكريما لها .. والحقيقة كانت غير ذلك وهي لم تكن تجهل ما يحاك لها في الخفاء ..وذاك ما كان يؤلمها في قرارة نفسها..

- كيف ينقلب الناس بهذه البساطة ؟

لم تجد إلى جنبها في محنتها الأليمة سوى "اللقلق" المسكين الذي يزورها من حين إلى حين بعد أن انشغل بالتجارة و"البزنس".. يخفف عنها آلامها ويشعل معها فوانيس أمل عودة صديقه التراس..وكانت تشتكي له مضايقات المسؤولين الرسميين الذين كانوا يزورونها فرادى يطلبونها للزواج من أجل التخلص من ذكرى التراس البطل.. كان ظاهر عرضهم الإشفاق عليها ولكن باطنه محاولة الاستئثار والانفراد بها من أجل البحث عن مصالحهم الدنيوية الآنية ..

في إحدى اللقاءات اقترح عليها "اللقلق" فكرة تعجيزية تبعد عنها هؤلاء المتطفلين وتتركها لحالها وفية لحبيبها التراس وهي أن يخرج إلى الناس ويعلن أنه من يرغب في الزواج من "ست الحسن" أن يحضر لها مهرها: قطعة من عظام البطل المختفي أو قطعة من ملابسه أو سيفه

الذهبي أو شيئا يدل على هلاكه واستحالة عودته.
فاستحسنت الفكرة وشكرته على مساعدته ووفائه لصديقه.. وكانت المفاجأة .. كل الرجال وكل البالغين ذهبوا للبحث عن المهر في ربوع الأرض، وبقيت الصبايا والعوانس والمتزوجات يلعنّ "ست الحسن "في سرهن لأنها خطفت قلوب كل الذكور ..

حبّ وحسد ..

قال (الراوي) كانوا أربعة يريدونها مهما كان الثمن.. وكل واحد يريدها لنفسه ولا يريد لسواه أن يظفر بقلبها. المسؤول العسكري الجنرال بودبزة والمحافظ السياسي بوخبزة وسي الهادي إمام المسجد الكبير والصحفي كمال بوترفاس .. كان كل واحد يظن أنه الأولى بها والأجدر والأقدر على إقناعها برمي سواد الليالي الحالكات وجحيم الذكريات الأليمة وفتح صفحة جديدة للغد

المشرق.. كان كل واحد منهم يعتقد أنه يستطيع أن يسد فراغ غياب التراس ولذلك يختلق الأسبـاب لزيارتها خفية في منتصف الليل أو قبيل الفجر. ويغريها بكل ما أوتي من حيل بقبول عرضه ليخلصها من الوحدة.. لأن هذا الجمال – حسب الأسطوانة التي يردد الجميع- لا يستأهل أن تذوب شموعه في قبو الماضي تضيء الذكريات الحزينة وإنّـما من الواجب أن يهدي الأحياء وينير لهم الطريق ..

ولما سمعت شهلة بنت الإمام سي الهادي وزوجة المحافظ السياسي بوخبزة اللقلق يذيع في الناس شرط الزواج من "ست الحسن" تملكها الحسد والغيرة وتمنت لو يهبها الله في تلك اللحظة قوة الجن الخارقة لتحمل جبلا شامخا وتطلقه يسقط عليها وتريح الرجال منها ومن فتنتها ..

كانت في تلك اللحظة بين أحضان الجنرال بودبزة تخون زوجها المحافظ الذي أرغمها والدها الإمام على الزواج منه من أجل صفقة رجالية لا علاقة لقلبها بها :

- ماذا تحسب نفسها "ست الحسن"؟.. "لونجا" بنت السلطان تنافسنا في حلالنا وحرامنا ..

وحتى تشوه صورتها وتزعزع ثقة المغرمين بها.. أطلقت الشائعات عن علاقات غرامية لها مع وجهاء البلد انتقاما منها ومن عفتها المبالغ فيها فبدأت ألسنة السفهاء تنهش شرفها وتقذفها بكل سوء ..

وما كاد "اللقلق" المسكين ينهي بلاغه حتى قبض عليه البوليس واتهموه بممارسة السياسة وإثارة القلاقل والإخلال بالأمن العام...
وبعد أن نهشت الألسنة شرفها كغربان الحقول.. حرض الماكرون أطفالهم على قذفها بالحجارة ومحاصرتها في بيتها حتى لا تخرج أبدا.. فتطوقها وحدتها وعزلتها وتغرق في دموعها وقد تكون تلك نهايتها إلى الأبد ...

الجمعة الأسود ..

قال (الراوي) في إحدى خطب الجمعة تجرأ الإمام سي الهادي وخصها بخطبة عصماء قائلا :
- هذه "الولية" يجب أن تتزوج رجلا شريفا يسترها ويمنع حدوث فتنة في البلد بسببها وإلا على السلطات الرسمية أن تتصرف معها حفظا للنظام العام من الرذيلة والشبهات، واقترح أن يُبنى سور عال حول بيتها، وتمنع من الخروج إلا محجبة ومنقبة وبتصريح من السلطات وبرفقة الحرس الخاص.
ولمح في خطبته أمام جميع المصلين أنه مستعد أن يسترها لوجه الله رغم ما يشاع عنها من شبهات.. وكان يومها، صهره المحافظ بوخبزة، كعادته يوم الجمعة، في الصف الأول وهو يدعو في نفسه:

- اللهم مكني من قلب "ست الحسن" ونصبني حاكما لبلاد الشمس.

لم يهضم كلام صهره الإمام فغمز المخبرين المندسين بين الصفوف فقبضوا عليه بعد الصلاة وساقوه إلى حيث لم يره أحد منذ تلك الجمعة ودرسها المشؤوم .
وكان الصحفي كمال بوترفاس، بدوره يزورها في بيتها ويحاول جاهدا أن يفوز بسبق صحفي لجريدته عن سيرة التراس لتعرفه الأجيال الجديدة التي تسمع عنه وعن بطولاته ولم تعرفه من

مصدر قريب منه .. كانت تتهرب من اقتراحه كل مرة لأنها بكل بساطة لا تريد من قصة البطل العظيم الذي حرر الوطن وأعاد البهجة لشعبه ولأصدقائه من الطير والحيوان والنبات أن تصبح مجرد قصة مسلسلة تتسلى بها الأجيال الجديدة، تقتل بها الوقت أو تنسيها مشاكلها العويصة التي تتخبط فيها ..
وكان الصحفي بوترفاس قد غرق في حبها وأعد ملحقا خاصا كاملا مدعما بالصور، يتحدث فيه عن حياتها وطبع منه آلاف النسخ وزعها مجانا على القراء زاعما أنها مساهمة بسيطة منه لنشر العلم والمعرفة في أوساط الشعب.. والحقيقة أن مبادرته تلك -لسبب أو لآخر- لم تعجب السلطات فاتهموه بإفساد أخلاق الشباب والخروج عن خط الدولة الأيديولوجي الملتزم وقدموا له إنذارا شفويا حتى لا يتجرأ مرة أخرى ويمس الخطوط الحمراء. وأصبح الصحفي يجد في رفضها فرصة للعودة إليها مرة بعد المرة ليقابلها ويحاول إقناعها بالزواج منه، للتخلص من كابوس الماضي ومن شبح التراس، والنظر إلى المستقبل، لأن المستقبل كفيل بأن يفتح لها صفحة جديدة في كتابه ..
وبعد القبض على اللقلق طلبت "ست الحسن" من الصحفي أن يكتب مقالا ينور فيه الرأي العام بخلفيات التهم المنسوبة إليه لأنها مفتعلة وباطلة وليس لها أساس من الصحة.. ومن شدة تعلقه بها

تحمس كمال بوترفاس للموضوع وللدفاع عن اللقلق، ولم يكن هدفه الحقيقي إنارة الرأي العام والدفاع عن مظلوم بقدر ما كان يريد أن تعرف مدى تضحيته، ليستميل قلبها إليه ..
وما كادت السلطات تطلع على المقال حتى أصدرت الأوامر الصارمة لمصادرة الجريدة والقبض على كاتب المقال متهمة إياه بإفساد أخلاق الشباب وبالدفاع عن الغوغاء والأشرار والمخربين.
ولم تجد "ست الحسن" غير بوخبزة المحافظ السياسي فذهبت إليه، باكية شاكية، وطلبت منه أن يتدخل لإطلاق سبيل اللقلق المسكين والصحفي المتهور، ولكنه صارحها أن أمر الصحفي فوق طاقته لأن السلطات العسكرية كانت تترصده وتتحين الفرص للقبض عليه وزرعت في طريقه الجواسيس لمراقبته ولا يمكن هذه المرة أن يخرج منها سالما ..
ساومها المحافظ بوخبزة في الإفراج عن اللقلق بشرط أن تشهد على أن ما أذاعه في الناس ليس إلا مبادرة منه، ولم يناقشها فيه خوفا عليها ووفاء لصديقه التراس المختفي.. ولما رفضت اقتراحه ترجاها أن تدعي أنه فعل ذلك تحت تأثير الخمر أو بفعل الجنون ودون ذلك لا يمكن أن يخرج سالما.. وبعد إصراره على الاقتراح لم تجد حيلة أخرى لإنقاذ اللقلق من حبل المشنقة .. فطلبت منه أن يكون الزواج علنيا، فقبل المحافظ بوخبزة دون شرط، أعلن في الناس أنه سيتزوج "ست

الحسن" وستقام الأفراح والليالي الملاح قرنا كاملا وأنّ المواطنين مدعوون كلهم للعرس يأكلون ويشربون ما طاب لهم على حساب المحافظ طيلة هذا القرن السعيد ..

الجنرال بودبزة ..

قال (الراوي) حين سمع الجنرال بودبزة، خبر إعلان الزواج كان في تلك اللحظة عاريا كما ولدته أمه يقضي نزواته الروتينية بين أحضان شهلة زوجة المحافظ بوخبزة .. فدفع عشيقته بعنف وانتفض غاضبا.. يسب الربّ والمحافظ وست الحسن والزمان والمكان والتاريخ والجغرافيا و....فأمسكته شهلة الشبقة من ذراعه مترجية إياه أن يبقى إلى جنبها حتى تحقق رغبتها الجامحة، فسبها هي الأخرى وسب والدها الإمام

وزوجها السافل :

- عليك اللعنة وعلى والدك وعلى زوجك. ابتعدي عني أيتها الحثالة وإلا أفرغت مسدسي في رأسك ..

صرخت شهلة في وجهه بكل جرأة ووقاحة :

- بدل أن تفرغه في رأسي أفرغ بعض رصاصاته في رأس زوجي بوخبزة المحافظ السافل ولا تنس أن تفرغ بعضها في رأس تلك "الستوت" خاطفة الرجال، ثم أكمل ما تبقى منها في رأسي وأرحني من غدر الزمن ..

نزل الجنرال بودبزة بنفسه في منامته على غير عادته.. يقود دورية من الحراس الأشداء وقبضوا على المحافظ في مكتبه وأودعوه السجن بتهمة الشروع في التبذير والإسراف وتبديد أموال الشعب في أمور شخصية ..

وهكذا خلا له الجو من المنافسين ..

كأن القدر يرتب له بسرعة ما كان يخفيه في نفسه ولا يعلم به أحد سواه ..

- هذا الشعب لا يستطيع أن يكون منظما ومنضبطا إلا بقوانين وتنظيم الثكنات .. لهذا لا أسمح لأحد منذ اليوم أن يسفسط عن الحرية والعدالة فكل ما في الأمر : هناك أمر طبق ..

عطل حضرة الجنرال بودبزة العمل بالدستور وأعلن حالة طوارئ في البلاد.. ونصّب نفسه حاكما أبديا للجمهورية، ومن يخالفه الرأي ولا يطع أوامره يشنق في الساحة العامة دون محاكمة ...

وفي منتصف الليل أمر الجنرال جنوده بإحضار "ست الحسن" إلى مكتبه فأتمروا بأمره.. ولم تكد تنقضي ساعة حتى كانت بنت الحسب والنسب سيدة النساء الوفية لحبيبها المختفي بين يديه في وضعية يرثى لها.. يداها ورجلاها ترصفان في الأغلال وآثار الاعتداء بادية على جسمها وملابسها.

وبعد أن انفرد بها ساومها بالزواج منه، لتصبح سيدة المجتمع تحكم بأحكامها، وإلا نكّل بها ومرغ شرفها وكبرياءها في الوحل، ولن يستطيع مخلوق أن يقف في وجهه لأنه أصبح الحاكم الوحيد الآمر والناهي في البلد ..

وحتى يقضي على آخر حبال الأمل المتشبثة بها.. أخبرها أن اللقلق انتحر في الزنزانة.. والصحفي كمال بوترفاس سيطلقونه ليتسلى به أطفال الشوارع، بعد أن فقد عقله تحت التعذيب الجهنمي. وسي الهادي الإمام خنقه صهره المحافظ بوخبزة، ودفن جثته في مكان لا يعلم به أحد.. وبوخبزة المحافظ ستنهش لحمه كلاب النسيان في زنزانة شديدة الرطوبة والبرودة ..

لم تقبل ست الحسن عرضه، مصرة على أنها مازالت وفيه لحبيبها التراس المختفي ولا يمكنها أن تخونه ولا يمكن لمخلوق أن يقطع حبل الوفاء بينها وبينه ..

لقد وعدها بأن يعود، وحتماسيعود..

وهو إذا وعد وفى.. ودون ريب سيعود مهما طال

الزمن.. ولكن الجنرال بودبزة الحاكم الجديد للدولة أصر على أنه لن يعود ..
- أبدا لن يعود ..
فلما سمعته يؤكد ما يقوله، حاولت أن تعرف السبب ..
وبعد إلحاحها كشف لها السر الذي ظل دفينا في صدره :
- أنا طعنته .. أنا من قتل التراس ..
صرخت في وجهه سيدة النساء :
- أنت.. أنت أيها الجنرال قتلت حبيبي الذي منحك نجوما لتكون على رأس المقاتلين، لتحطم شوكة المعتدين .. أنت قتلت حبيبي الذي انتظرته قرونا وخبأت له حبي بين أضلاعي وزهرة شبابي بين فخذي ووعدته بليلة من أجمل ليالي العمر، فحرمتني منه ..
قال الجنرال بودبزة مفتخرا :
- نعم أنا طعنته بعد أن هوى على جدار السد بالفأس وزلزله، وصار النصر حليفنا.. طعنته من الخلف بخنجري المسموم كنت أعرف أنها لحظة النصر.. ولذلك قضيت عليه لأنه كان سيتزوجك وتنتخبه الجماهير الغارقة والهائمة في حبه حاكما وتصبح مفاتيح الجمهورية في يده، ولم يكن ذلك يروق لي وكان يجب أن يموت وتنتهي أسطورته في تلك اللحظة الحاسمة, ليبقى مجرد رمز مبهم وذكرى جميلة في ذاكرة الأجيال .. لكن ما إن طعنته الطعنة الأولى حتى اختفى .. كأن الملائكة رفعته .. أوكأن الجن أخفته ..لأنني كنت سأطعنه طعنات أخرى حتى

أتأكد من موته وأشفي غليل حسدي منه ..كنت سأقدم لك رأسه مهرك الغالي ..
قالت ست الحسن متعجبة :
- أنت مجنون .. مجنون ..
قال الجنرال بودبزة :
- إنها لحظة الحسد المجنونة التي تنتاب أحيانا الرجال، فيجدون أنفسهم في موقف ضعف أمام غريمهم.. كنت دائما أتمنى أن أكون مكانه، أحظى بما يحظى به من تكريم وتقدير من البشر والكائنات ..
ولما أنهى كلامه قالت له "ست الحسن" غير مصدقة :
- إنك تهذي ولا تقول الحقيقة أيها الجنرال ..أنت تريد إيهامي بموته لأقطع حبل الوفاء بيني وبينه ليس أكثر لأصبح حليلتك، هذا مناك الأكبر ..
فأجابها الجنرال :
- لو لم ينتحر اللقلق في الزنزانة، بعد أن عاد إليه وعيه وعذبه ضميره، لاعترف لك بالحقيقة التي ظل يخفيها عنك وعن الناس، كما كان يخفي حبه الجبان لك .. مات المسكين وهو يلعن الحب الذي لم يستطع أن يعبر لك عنه، وعن الثروة التي قبضها ثمن خيانته لصاحبه ورفيق دربه التراس ..
قالت "ست الحسن" متألمة ومتأسفة :
-كيف فعلت هذا أيها السافل؟ كيف تسمح لنفسك باغتيال سيد الرجال التراس.. البطل الذي هزم

العماليق وكسر صلبانهم، وهدم السد اللعين وأعاد مياه الوادي الكبير إلى مجاريها ؟
كيف سمحت لنفسك الأمّارة بالسوء أن تفعل ما فعلت ؟
لم يحتمل حضرة الجنرال بودبزة، الحاكم الجديد لبلاد الشمس تأنيبها، وندم على إفشاء السر الذي ظل دفينا في نفسه حتى صار التراس يطارده في أحلامه فلم يعد يأوي إلى فراشه إلا بعد أن يسكر ويعربد ويفقد وعيه..
فصفعها وقال لها :
- أيتها المرأة الجميلة الفاتنة المكابرة ..أنا مستعد أن أقتل كل هذا الشعب إذا وقف في طريقي من أجل تحقيق مآربي ونزواتي .. إلاّك، لأنك نزوتي الكبرى فإذا قتلتك فاني أقتل نفسي .. ولهذا يجب أن أصبر عليك .. أنت فرس جموح وسأجتهد في ترويضك ..كما روضت هذا الشعب في ظرف قياسي.. لن أستعجل .. حتى تأتي طائعة من تلقاء نفسك تقبلين قدمي عارضة علي نفسك ..
- أي جنرال أنت أيها ال ...؟
قالت ذلك في نفسها "ست الحسن" ثم صرخت في وجهه متحدية إياه:
- **لن تمس شعرة من رأسي ونجوم السماء أقرب إليك من قلبي .. الآن أنا أكرهك أكثر.. وألعنك سرا وجهرا في كل صلواتي ...**
ولأن السلطة المطلقة أصبحت في قبضة حضرة

الجنرال بودبزة، بعد أن قضى على منافسيه ونصب نفسه حاكما أبديا للجمهورية وعطل الدستور وأعلن حالة الطوارئ في البلاد ..أصدر مرسوما رئاسيا يلزم فيه "ست الحسن" بنت الحسب والنسب أن تصبح خادمة تمسح نهارا بلاط قصره ودورات مياه جنوده وإسطبل خيوله وليلا ترقص له ولندمائه عارية كما ولدتها أمها على أنغام موسيقى صاخبة داعرة حتى يسكر ويعربد ويضحك ويبكي ويتمرغ على ظهره قبل أن يغط في نوم عميق على البلاط يشم غائطه وخيبته ..
ودأب على ذلك أسابيع وشهورا وأعواما على أمل أن تستسلم له "ست الحسن" حين يفرط في إهانتها، ولكنها بنت الحسب والنسب ظلت صابرة على ما لحقها من أذى وفاء للتراس حبيبها الأبدي .. ولم يستطع أحد من أبناء الوطن حتى التفكير بينه وبين نفسه في إيقاف هذه المهزلة..
حيث أصبح الأخ يخاف من أخيه والأب يخاف من ابنه، والزوجة تخاف من زوجها ..
كان الخوف قد سكن قلوب ومفاصل ناس الجمهورية فمسخهم الله فصاروا بهائم لا حول ولا قوة لهم ..

نهاية المهزلة و بداية المسألة ..

قال (الراوي) وهكذا يا سادة، ظلّ سكان بلاد الشمس ممسوخين بهائم حتى كان ذلك الصباح الندي حيث مزق صمت الليالي الخمرية الداعرة صوت جهوري تردد صداه في الآفاق :

- استيقظوا من غفوتكم وغفلتكم أيها البهائم السكارى.. ها قد عدت لأفـي بوعدي.. تركت بينكم أمانة ..
- فهل حافظتم في الغياب على أمانة التراس ؟

قال (الراوي) ..
هنا تنتهي حكاية التراس، الفارس الذي اختفى ..
وتليها ألف حكاية وحكاية ..
عن سر اختفاء الفارس التراس
الحمد للّه وكفى
والصلاة على نبيه المصطفى ..